مجلة الرائد

العدد : ٢٣٢ الموافق في رمضان ١٤٢٢ هجري ٢٠٠١/١٢ ميلادي

عنوان المقال : المحل القابل الفاعل في الإنسان	الكاتب : أ. متولي موسى

وجه اللّه تعالى بني آدم جميعاً في القرآن الكريم إلى الإيمان ، والإستجابة لما يحيي القلوب ، ويزكي النفوس ، وينقذ الإنسان من الهلاك والشرور والسوء ، وقد جاء هذا التوجيه بأساليب متعددة ، وسوف يركّز هذا المقال على بيان المحل القابل الفاعل في الإنسان وهو " القلب " ، الذي جعله الخالق ﷻ محل الإيمان ، فقال عزَّ وجلَّ : { **قَالَتِ الأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ** ... } [الحجرات : ١٤] . وبين الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ أن صلاح الجسد يتوقف على صلاحه ، وكذلك فساد الجسد يتوقف على فساد القلب فقال : « ... **أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلا وَهِيَ : الْقَلْبُ** » متفق عليه من رواية النعمان بن بشير ﷺ .

والكلام عن هذا المحل القابل الفاعل يتناول :

١- المقصود بصلاح القلب وفساده : لا شك أن صلاح القلب يكون بسلامته ، والسلامة الشرعية تعني امتلاء القلب بالإيمان باللّه تعالى ومحبته ومحبة من يحبه وما يحبه ﷻ . هذه السلامة التي تورث الخشية والإنابة والإخبات ، فينتج عن ذلك اجتناب المحرمات جميعها وتوقي الشبهات والعكوف على طاعة اللّه ابتغاء مرضاته والخضوع لما شرع ﷻ ، وهذا هو القلب الذي أخبر عنه خالقه ﷻ فقال : { **يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ۞ إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** } [الشعراء : ٨٨-٨٩] ، وقوله عزَّ وجلَّ : { **مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ** } [ق : ٣٣] ، وقال عزَّ من قائل :{ **وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ** ... } [الحج : ٥٤] .

وهذا هو القلب الذي لا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض كما أخبر الرسول ﷺ ، فقد ورد في صحيح مسلم عن حذيفة ﷺ ، قال : كنا عند عمر ، فقال : أيكم سمع رسول اللّه ﷺ يذكر الفتن ؟ فقال قوم : نحن سمعناه . فقال : لعلكم تعنون فتنة الرجل في أهله وجاره ؟ قالوا : أجل . قال : تلك فتنة تكفّرها الصلاة والصيام والصدقة . ولكن أيكم سمع النبي ﷺ يذكر الفتن التي تموج موج البحر ؟ قال حذيفة : فأسكت القوم . فقلت : أنا . قال : أنت ، لله أبوك ! قال حذيفة : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « **تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا ، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ ، عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ ، وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا ، كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ** ... » . والفساد يكون بضد الصلاح أي

عنوان المقال : المحل القابل الفاعل في الإنسان	الكاتب : أ. متولي موسى

يكون القلب مريضاً بأمراض الشرك والنفاق والرياء التي تورث فساداً وشراً وهلاكاً .

هذا ولا يمنع هذا الفهم من أن تكون السلامة المادية أي " البيولوجية " بحيث لا تختل ضربات القلب بحيث لا يتوقف عن ضخ الدم في الجسم ، فإن جميع خلايا الجسم - بما في ذلك - خلايا الدماغ تفقد الحياة إذا لم يصل إليها الدم بانتظام ، فإذا حصل توقف فجائي أو اضطراب في القلب ، فإن حياة الإنسان مهددة بالانقضاء ، والأطباء يدركون خطورة أدواء القلب ولزوم علاجها إذا أمكن ذلك .

٢- علاقة القلب بالعقل ووسائل الإدراك : وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم تدل على العلاقة القوية بين القلب والعقل ووسائل الإدراك ، بحيث يمتلك الإنسان العاقل القدرة على تحصيل نسب الإدراك التي قد تصل إلى أعلاها وهو العلم أو اليقين ، ولا يمكن إحصاء هذه الآيات لكثرتها ، ولكن أذكر منها على سبيل المثال قول اللّه عزَّ وجلَّ : { **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** } [الحج: ٤٦] ، وقوله ﷻ : { **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** } [الأعراف : ١٧٩] ؛ وقوله تباركت أسماؤه : { **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** } [النحل : ٧٨] .

ولا بد للإنسان السوي أن يهتدي من خلال هذه الوسائل إلى تبين الحق ، وأن يؤمن به ويلتزمه حتى تكون لذلك الآثار الحميدة في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، فقد أخبر اللّه تعالى عن ذلك بقوله : { **وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** } [الحج : ٥٤] ، وقال ﷻ : { **وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** } [العصر : ١-٣] ، أما الذي يدرك الحق ويجحده فهو ظالم لنفسه وموردها المهالك ، مصداق قول اللّه تعالى : { **بَلْ هُوَءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلا الظَّالِمُونَ** } [العنكبوت : ٤٩] ، وقال عزَّ من قائل : { **وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ۞ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً** } [الكهف : ٢٩-٣٠] .

وعلى ذوي الألباب أن ينتبهوا إلى أن الاستدلال على الحق يمكن أن يكون :

① بالتفكر والتدبر للآيات المبثوثة في النفس والكون ، كما أشار القرآن الكريم إلى ذلك في مواضع عديدة نذكر منها هنا قول اللّه تعالى : { **سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ** ... } [فصلت : ٥٣] ، وقوله عزَّ وجلَّ : { **وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ ءَايَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ** } [الجاثية : ٤] ؛ وقوله تباركت أسماؤه : { **وَفِي الأَرْضِ ءَايَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ** } [الذاريات : ٢٠] .

② بالتفكر والتدبر للآيات الشرعية كما أرشد إلى ذلك الحق في قوله ﷻ : { **هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ** }[**الجاثية : ٢٠**]؛وقوله عزَّ وجلَّ : { **كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ** } [ص: ٢٩] ؛ وقوله تباركت أسماؤه : { **أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيرًا** } [النساء : ٨٢] .

وأخيراً على الإنسان أن يعي قول الخالق ﷻ : { **قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا** ... } [الأنعام : ١٠٤] ، وقوله عزَّ وجلَّ : { **... فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى ۞ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ۞ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ۞ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى** } [طه : ١٢٣- ١٢٦] . ففقد العينين للإبصار لا يعد عمىً بجانب افتقاد البصيرة .

٣- لا بد من اتخاذ الأسباب لتوفير الشروط وانتفاء الموانع : إذا أراد الإنسان التحقق من سلامة القلب فلا بد له من :

❶ إدراك أن الإنسان لا سلطان له على قلبه وإنما السلطان على القلوب لله عزَّ وجلَّ ، فقد قال الصادق المصدوق ﷺ : « **قُلُوبَ العِبَادِ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ** ... » (أخرجه مسلم في صحيحه في القدر ، باب تصريف اللّه تعالى القلوب كيف يشاء) ، وورد أيضاً في مسند الإمام أحمد وسنن ابن ماجة بسند صحيح عن النواس بن سمعان ﷺ قال : قال رسول اللّه ﷺ : « **مَا مِنْ قَلْبٍ إِلا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ إِنْ شَاءَ أَقَامَهُ وَإِنْ شَاءَ أَزَاغَهُ** ... » ، ولذلك كان رسول اللّه ﷺ يقول : « **اللهم يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ** ... » (رواه الترمذي في سننه وقال حديث حسن) .

❷ الاعتقاد أن العبد إذا آمن وأقبل على اللّه تعالى عاونه اللّه ﷻ وهداه ، مصداق قوله عزَّ من قائل :

{ ... **وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ** ... } [التغابن : ١١] ، وقوله ﷻ : { ... **وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ** ... } [الحجرات : ٧] . وأما الذين أدركوا الحق وزاغوا عنه وكذبوا به فإن اللّه تعالى يزيغ قلوبهم ويستدرجهم من حيث لا يعلمون ، قال ﷻ : { ... **فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ** ... } [الصف : ٥] ، وقال عزَّ وجلَّ : { **فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ ۞ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ** } [القلم : ٤٤-٤٥] . وكذلك يطبع اللّه على كل قلوب الكافرين والمتكبرين والمعتدين والذين لا يعلمون علم رشد ، كما أرشدنا ﷻ إلى ذلك في قوله : { ... **كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ** } [**الأعراف : ١٠١**] ، { ... **كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ** } [**غافر : ٣٥**] ، { ... **كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ** } [**يونس : ٧٤**] ، { **كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** } [الروم : ٥٩] .

❸ لقد أجاد ابن القيم رحمه اللّه تعالى وأفاد بقوله : " إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه ، وألف سمعك ، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به ﷻ منه إليه ، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله ، قال تعالى :{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**}

وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفاً على مؤثر مقتض ، ومحل قابل ، وشرط لحصول الأثر ، وانتفاء المانع الذي يمنع منه ، تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظٍ وأبينه ، وأدله على المراد .

فقوله تعالى : **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى** إشارة إلى ما تقدم من أول السورة إلى ها هنا ، وهذا هو المؤثر.

وقوله : **لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ** فهذا هو المحل القابل ، والمراد به القلب الحي الذي يعقل عن اللّه ، كما قال : { ... **إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُبِينٌ ۞ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا** ... } [يس : ٦٩-٧٠] ، أي حيي القلب ، وقوله : **أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ** وجه سمعه وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له ، وهذا شرط التأثر بالكلام . وقوله : **وَهُوَ شَهِيدٌ** أي شاهد القلب حاضر غير غائب " [1] .

ونقل رحمه اللّه تعالى قول ابن قتيبة رحمه اللّه تعالى حيث يقول : " استمع كتاب اللّه وهو شاهد القلب والفهم ، ليس بغافل ولا ساه ، وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير ، وهو سهو القلب ، وغيبته عن تعقل ما يقال له ، والنظر فيه وتأمله .

فإذا حصل المؤثر وهو القرآن والمحل القابل وهو القلب الحي ، ووجد الشرط وهو الإصغاء ، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب ، وانصرافه عنه إلى شيء آخر ، حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكر " . (٢)

فاللّه تعالى أسأل أن يجعلنا ممن يدركون حقيقة ذلك ، حتى ننتفع بالقرآن العظيم ، والحمد لله رب العالمين .

الهوامش :

(١) الفوائد : للإمام ابن القيم رحمه اللّه تعالى ، دار اليقين للنشر والتوزيع ، مصر ، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م ، ص: ٢٣-٢٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص : ٢٤ .